نظرات في سورة يوسف (15)

إن كيدكن عظيم!!

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية – البيرة

(فلما رأى قميصه قُدّ من دُبُر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم)، قال العزيز هذا الكلام بعدما سمع شهادة قريبها، ثم نظر إلى موضع الشق من القميص.

وقال: (إنه) مستخدماً الضمير دون تسميته أو تعيين المقصود به، لتعظيم الأمر، أو لأنه لا يريد أن يتلفظ به لضيقه وتقززه منه، والمقصود كما يبدو، هو المراودة وما بعدها من المسارعة في إلقاء التهمة على يوسف.

وقوله: (من كيدكن) يشير أولاً إلى أنها هي المدانة لا يوسف، والكيد في اللغة يتضمن معاني التدبير والتخطيط والحيلة المقرّبة لوقوع المقصود، ويغلب أن يكون في الشر والإضرار.

وتابع قائلاً:(إن كيدكن عظيم)، وحين يقول العزيز لامرأته بأن كيدها وكيد بنات جنسها عظيم، فإنه يعلن ضعفه وعجزه عن القيام بأي عمل تجاه زوجته التي تسعى لخيانته، ويرفع الراية البيضاء أمامها، ولسان حاله يقول لها: أنا لا أستطيع أن أفعل لك شيئا، وماذا أفعل تجاه هذا الكيد العظيم؟، ثم هو يزعم أن هذا الكيد ليس خاصاً بامرأته بل هو كيد متأصل في جنس النساء، وكأنه في هذا الموقف ليس في مواجهة كيد امرأته فحسب وإنما أمام كيد كل النساء مجتمعات، ثم ماذا عساه يفعل لتغيير أمر جبلّيّ؟ ليبرر عجزه ويؤكده، وهي حين رأت منه ذلك العجز والضعف، تمادت في غيّها وجاهرت، ولم تخجل حتى أمام النسوة فقالت فيما بعد:(ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكوناً من الصاغرين).

ثم يتوجه العزيز إلى يوسف باسمه:(يوسف أعرض عن هذا)، يذكره بالاسم إكراماً له لطهارته وإخلاصه، راجياً إياه ألا يتكلم بالأمر، فكل الذي يهمه سمعته ومركزه، أما رد الاعتبار ليوسف فليس في وارده، وربما كان مقصوده: يوسف لا تهتم بما وقع لك ولا تعبأ بالأمر؛ من باب التهوين عليه والتسرية عنه.

ويعود يخاطب امرأته دون ذكر اسمها، بسبب شعوره نحوها،(واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين)، اطلبي المغفرة على هذا الذنب الذي جعلك عريقة في الخطيئة حتى سلكك في عداد الخاطئين، تعظيماً لفعلتها، ومن المفسرين من فهم قوله في سياق تهوين صنيعها وتصغيره وهو يخبرها أن الخاطئين من الرجال والنساء كثيرون وأنت واحدة منهم؟

والطريف أن قول العزيز: (إن كيدكن عظيم) قد اعتبر لدى العديد من المفسرين فضلاً عن عامة المسلمين، حُكماً قرآنياً ربانياً في حق النساء، والأكثرون ينسون أن هذا من قول العزيز لامرأته، وليس حكم الله تعالى في المسألة، والفريق الآخر، مع إقرارهم بأن القول قول العزيز، فإنهم رأوا صحته لكون القرآن لم يرد عليه فاعتبروه تقريراً!!

ومنهم من لم يكتف بذلك بل قالوا إن كيد المرأة أعظم من كيد الشيطان، ومستندهم أن الله تعالى، وصف كيد المرأة بالعظيم، بعكس كيد الشيطان، حيث قال عنه: (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً)، وتنتشر قصص وحكايات بعضها شعبي وبعضها في الكتب، عن كيد المرأة الذي يغلب كيد الشيطان!!

بداية فإن كيد الشيطان أكبر من كيد النساء، بل إن الكيد السيء من النساء، ومن الرجال أيضاً، هو جزء من كيد الشيطان. وحتى لو قبلنا أن كيد المرأة عظيم؛ فهو كذلك بالنسبة لقائله وكما يحس به هو وأمثاله، وليس بالنسبة إلى الله تعالى، وهل يُعقل أن يكون لله سبحانه موقف سلبي من النساء، وهو خالق النساء والرجال جميعاً؟.

وقد يقول قائل بأن القرآن الكريم نقل على لسان يوسف عليه السلام نفسه، ما يؤكد عظم كيد النسوة حين قال:(و إلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن).

إن شاباً يافعاً مملوكاً تتواطأ عليه سيدته مع نسوة أخريات ترغيبا وترهيباً، وهذه السيدة تصول وتجول في ظل عجز الزوج وضعفه أمامها، بل وقدرتها على أن تأمر بزج يوسف في السجن، كل ذلك يشكل ضغطاً وثقلاً كبيراً يستدعي التضرع إلى الله تعالى بصرف كيدهن، لكنه لا يشهد على ما زعموا، فالأمران مختلفان.

لعل الأعراف الفاسدة والتخلف الاجتماعي، وما يتضمنه من النظرة الدونية للمرأة التي كثيرا ما تعشش في أذهان الكثيرين، بجعلها كبش فداء، كونها الأضعف، فيُسقطون عليها وينسبون إليها كل الشرور والآثام، متناسين النصوص الشرعية التي تشيد بالمرأة، ويؤولون النصوص المشتبهة على غير وجهها، وبضمنها هذه الآية الكريمة، وما ورد في الحديث من نقصان عقل المرأة ودينها.